الرمز: Requiem137

**في تشريح النقطة**

**لا تتركني أتلاشى**

1. **بوسعنا أن نكون متنفّسا**

*قد تصاحبها مقطوعة "دا باسيم دوميني" لـ "أرفو بارت"، وقد لا تصاحبها. (Da Pacem Domine d’Arvo Pärt)*

يولد الخطّ من رحم الحركة، فإن استطعت أن تبرح موضعك مرّة ثمّ أعدت الكرّة فمعناه أنّك حيّ ترزق. ستعينك قوانين الفيزياء بأحكامها على حركتك تلك الى أن تزيحك عنها قوّة خارجيّة، وبقيّة الخطّ على الصدر باقية وإن زُحزِحت. ولو أسلمت نفسك لنوبات الهستيريا فلا تعجب إن وجدت في جذعك ومركز ثقل جسمك الكامن في حوضك استسلاما إلى الدوران والتموج والخلع حتى تبلغ من عذب النشوة ما يسمو إليه الدرويش المتصوّف في طقوسه. كلّما زاغ الخطّ ردّت الوجوه التي يحملها عليه استقامته. والوجوه شتّى كانت أو جميعا شخصيات تنتمي الى الخطّ مسترسلا كان أو متقطّعا. وقد ينقلب حال ما كان في لحظة ما هستيريّا، فيصبح ضربا من الهستيريا التي يسهل التنبؤ بها. وهل من الهستيريّ حقّا ما يتنبؤ به؟ لا أدري. لا جواب عندي لكل سؤال، بل لا جواب عندي لجلّ الأسئلة. خُيّل إليّ يوم علمت أن الخطّ في سيره ليس سوى سلسلة نقاط أنّه بمقدور المرء التوقف واسترداد أنفاسه بل حتّى الجلوس قائلا "هنا يتوقف خطّي ولو للحظات معدودة". ولو احتجت لوقت أطول قليلا رأفة برئتين منهكتين يلهث صاحبهما تعبا ما عليك إلا أن تعمد إلى بصمتك فتوسّع بها النقطة التي فيها جلست. والآن وقد اتسعت دائرة النقطة وزادت مساحتها فقد أفسح لك المجال لتستكمل خطّك، أو كذلك كان ظنّي. ذلك أنّ النقطة، متى انطلق من مركزها خطّ آخر تحرّرت من قيود الشكل الواحد، أو كذلك كان ظنّي. يمكن أن تنبع الحركة كذلك من الخاصرة، فتتحرّك الرُّكب. ما عليك سوى أن تكون أكثر تركيزا وعنفا. دع زمام نفسك ولا تدعه لأحد سوى لنفسك. وليس الخطّ كالواصلة فإنّي أمقتها. إنما هي فرصة للخطّ. أذكر إذ كنت حاملا بك أن الحياة أكثر يقينا. سأكون نفسي وقريبا ستلتحق/ ستلتحقين بي أنت أيضا، وسأحرص عليك كل الحرص. ليس الخطّ كالواصلة فإنّي أمقتها. إنّما هي فرصة للخطّ. وليست الحياة واصلة، فإنّي أمقتها. إنما هي نذير شؤم للحياة. أجريت أصابعي على ما يكسو جسدي من جلد، أو ما كسا قفصي الصدري منه. رسمت خطّا بلون أحمر داكن. تلوّنت علامات تمدد الجلد أول الأمر بأحمر قان ثمّ بهت لونها فصار ورديّا إلى أن بهت بعض العلامات تماما أو إبيضّ أشبه بعجائز نحيفات. ليس من الصواب اشتراط الكبر في السّن ليبيضّ شعر المرء شيبا. إنّ من الأحداث ما يعصف بك عصفا فيشتعل رأسك شيبا. أحبّ شعر المشيب في المرأة. أحبّ شعر المشيب في الرّجل. تلك فرصة للشّعر. من شدائد الحياة ما تعجز أمامه أي نقطة مهما اتسعت دائرتها عن توفير متنفّس كافي. أحببت كفّي وأنت في المهد. وإنّ الواصلات المرسومة في كفّي ليست واصلات، فنحن نمقتها. ضربت لك أمثالا ساذجة عن خطوط الحياة. عن الخيط الفاصل بين الابهام وسائر الأصابع. عن الخيط المحيط بالخط الذي يجري من السبّابة إلى الطرف المقابل من راحة اليد. خطوط الحياة المنحوتة على الكفّين هي حلقات جذوع الأشجار، هي علامات تمدّد الجلد، هي لا أدري ما هي؟ لا أدري. لا جواب عندي لكل سؤال، بل لا جواب عندي لجلّ الأسئلة. كنت متى تزحلقت على المزلقة وارتطمت أردافك بالأرض ارتطاما عنيفا لا تبكي/ لا تبكين إلاّ إذا لمحت الخوف في عينيّ. علمت حينها أنّه متى عصفت بنا الشّدائد على شدّتها لا يجب أن ترى/ تري في عينيّ خوفا. أعدك أنّي سأغمضهما. أين أنت؟ وكم من شخص أكرِه على هجر أطفاله. وكم من شخص فقد أطفاله مكرها. وكم من شخص اضطرّ إلى أن يسبق أطفاله على أمل أن يدركوه سريعا؟ وكم من شخص اضطرّ أن يرسل أطفاله قبله على أمل أن يُقبلوا هناك؟ وكم من شخص لم يُكتب لهم أن يرزقوا بأطفال أبدا؟ وكم من شخص يمسك أيادي أطفاله بإحكام. في الغابة، في البحر، على الحافة، في زورق، في مركز مسيّج بسياج كهربائي، في خط، عبر أسلاك شائكة، حاجز، حدود، عبر أوراق هوية غير موجودة، في العدم. وكم من شخص عليه أن يكون على استعداد لتحمل بعضهم البعض في الفجوات والنقاط، عسى أطفاله يرون الخط الفاصل. عندما تسقط على الأرض بعد وصولك إلى أسفل المزلقة، عليك أن تكون أكثر تركيزًا. مع حركة الوركين، حرك الركبتين. استيقظ. تسلق المزلقة. مدّد الخط. أو وسّع على الأقل في هذه النقطة. أتراني وصلت إلى مركز الأرض؟ هل شعرت بهذا الانطباع بدورك؟

1. **أنا وحدي متنفّس**

*قد يصاحبها قرع طبول يشبه ارتعاش البطن وقد لا يصاحبها.*

إن كان كلّ ما حولي زائلا، فلن أشرب إلا فنجانا من الشّاي. وسأشربه زمنا طويلا. سيبرد الشاي تماما. سيبرد لاستغراقي في شربه ساعات. قطيرة قطرة. قطرة قطيرة. سأمعن التركيز في أثر طعمه في فمي الذي يبقى بعد انغلاق لسان المزمار. قطيرة قطيرة. سأردّ على القائلين بأنّ "هذا يكفي" أو "في الحياة شؤون أخرى لا بدّ من الاهتمام بها" أو، وهذه أسوئها، "أنت تضيعين وقتك". لأتباطئنّ حينئذ في شربها عنادا ولو كان ذلك في قطرة واحدة. لأمعنّن التركيز على هذه الكلمة حتّى أبيّن الوقت الحقيقي الذي يستغرقه الأمر. سأتظاهر أنّني شخص اخر وبأنني أعرف أنواع الشاي على اختلافها حقّ المعرفة. لا أشرب الشاي بنكهة الفراولة والفانيليا لأنني رفيعة الذوق ولأنني ما عدت طفلة. لا أشرب من أصناف الشاي إلاّ ما يليق بذوي المقام الرفيع. أنواعَ الشاي الرفيعة. يكتسي رفعة القوم رفيع الملبس، ويحملون من جوازات السفر أرفعها شأنا وما يعبرون به من الأبواب أرفعها قدرا، يترددون على الرفيع من الأماكن. لهم من الأسماء أرفعها ويشربون من الشاي أرفعه صنفا ويرفع لقاؤهم ما في نفس ملاقيهم من كدر. ليس على هؤلاء إذا ما اشتدّ بهم الغضب أو إذا ما فازوا مفازة عظيمة أن يهربوا. ليس عليهم السير دون انقطاع لأيّام ولا الركض. ليس عليهم أن ينكروا أطفالهم أو أن يحرموهم طيّبا مهما كان، ومن البديهي أنّه ليس عليهم ارتداء نفس الثياب مطوّلا. بوسعهم تغيير ملابسهم ما أرادوا الى أن يستريحوا. على النحو الذي يستحقّونه. متى اشتدّ الغضب برفعة القوم، يبتلع رفعة القوم حبوبا في علب صغيرة رفيعة كأنّ بها خصلات من شعر طفل أو أسنان لبنيّة، وليس أيّ دواء ذا تأثير نفسيّ. ومتى ابتلعوا حبوبهم الرفيعة، دون شاي أحيانا لما تفرضه الأسس الإيجابية لدأبهم هذا من اسراع في التنفيذ فيصدر بالتالي الأمر من الدماغ بإفراز اللعاب، رضوا بذلك. يشعرون متى انغلقت ألسنة مزاميرهم بشيء من العطش فيترشفون رشفة شاي رفيع. وإن كان كلّ ما حولي زائلا، فأؤكّد لكم أنّي لن أشرب إلاّ فنجانا من الشّاي. لم أكن أعلم بتاتا فيما مضى أنّ لأيّ بضاعة أن تكون عادية تماما أو تمامًا أو فاخرة تمامًا. زهور فاخرة، قماش فاخر، صابون فاخر، أربطة أحذية فاخرة، أغطية وسائد فاخرة، شموع فاخرة، معطرات شعر فاخرة وماذا بعد؟! ينقسم العالم بين الذين يهربون ويغسلون شعرهم بالماء حتى يتساقط خصلة تلو الأخرى وبين الذين يبقون في مكانهم ويختارون رذاذ الشعر الفاخر. بيد أنّه لا سبيل إلى تقسيم العالم إلى "هؤلاء" و"أولئك" فهذا لا يعني شيئًا. من الممكن تقسيم العالم إلى قديم وجديد. تنظّف الأم أوروبا والأم أفريقيا والأم آسيا أسنان صغارهنّ على عتبة العالم القديم. تهلك الأمهات الثلاث أحيانًا فداء أطفالهن، وتتركنهم أحيانًا يهلكون. لا طاقة للآباء بذلك، فيهربون في كثير من الأحيان إلى مكان ما. أينما ذهبوا، يبلغني أنهم يعشقون التسلّح بالبنادق، على الرغم من أنه من المفترض بعد ذلك أنه لا أحد يفهم أين ذهبوا. نقطة. نقطة طويلة ومستديرة وسميكة، حتى يدخل شخص شاحب اللون والجسم وأثر النّعمة باد عليه إلى "تي بالاس" (قصر الشاي) ويشتري "مجموعة تونيك الشاي الأيورفيدا". تقول الأسطورة أن اكتشاف الشاي كان صدفة إذ سقطت أوراق الشاي في الماء المغلي للإمبراطور شين نونغ في الصين، كان ذلك في القرن العاشر قبل الميلاد. وبحلول القرن السادس شاع شرابا بين الرهبان البوذيين في اليابان. لكنّ الشاي لم يظهر في بريطانيا ولم يصبح شائعًا إلا حوالي القرن الثامن عشر. ثمّ وصل إلى أفريقيا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. وكان المستعمرون هم من أدخلوه. وبغض النظر عن ذلك، فزراعة الشاي جدّ مزدهرة في ملاوي وتنزانيا ورواندا. نقطة مدورة. وإن كان كلّ ما حولي زائلا، فأؤكّد لكم أنّي لن أشرب إلاّ فنجانا من الشّاي.

1. **نحن جميعا الطموح**

*قد يصاحبها الصمت الذي غالبًا ما يصبح صاخبًا للغاية، وقد لا يصاحبها.*

تسلك الدموع أيضا مسلك الخط، فتغرق في حالة من انتفاء الوزن على طول شاطئ الخدين. تتوقف بعضها فتتشبّث بمخالبها بالشفاه والذقن حتى تسقط من المزلقة. ومتى سقطت من المزلقة، استقبلتها بركة عميقة عند قدميك تأخذك إلى مركز الأرض. بركة أوفيليا. تستطيع أن تغرق رأسك فيها وفي دموع سماوية حتى يسحبك خط المنبع إليه تماما. زد على ذلك الركبتين والوركين والكفين وهياكل مدورة. كذلك حدة الذقن والمرفقين، ولكن نعومة الخدين والرحم أيضًا. إنّك متى مشيت أياما ونمت على الأرض الصلبة، ترى جسمك وقد غطّته خطوط لم تعهد مثلها من قبل. تتبيّن لك عضلات ساقيك وفخذيك مفصّلة في حواف الجلد الرقيق تفصيلا. يبدو أن الجلد يمكن أن يتقشر في خطوط ناعمة من المركز إلى الخارج، ومن الجوانب دون عناء أو أظافر. مثل القشرة الداخلية لثمرة الرمان متى نزعت عنها القشرة الخارجية الحمراء الزاهية ثم تركتها زمنا طويلا. ومتى يخبرك أحدهم أنك لم تعد تحمل الاسم الذي كنت تحمله من قبل أو أن كل هذه الرسائل لا تضمن لك حقوقك المدنية وأنه لا ملجأ لك ولا مأوى، تظهر في حفرة صدرك سطور لم ترها من قبل.

يشقّ على معصمك أن يخطّ الخطّ الذي به ترسم توقيعك، لكنّك ومع شيء من التمرين المنتظم والعلاج الطبيعي تقدر على ذلك مستعينا بمرآة تجلّت في سطح بركة ماء. تظلّ إنسانا ولو غاب عنك الاسم والوطن بكل ما تحمله الكلمة من معنى أكثر حتّى من أي وقت مضى. لا يقنعنّك بغير ذلك بشر ولو انكسر فؤادك قطعا كقطع شهد العسل، فإنك مهما تلعق من هذا العسل وشهده غير مدرك ما سيفيض منه عن المائدة فينسكب أرضا. من السطر إلى النقطة. في تلك اللحظات، للخطّ أن يخيف من يخطّه بيده. من يخرجه. من ينشره. يبدو لي أحيانًا أن خطوطي سميكة سُمك شبكة الترامبولين (المِنَطّة). على مخطط كهربية القلب تكون مقوسة ومنثنية. حادة في معناها. متناثرة تكون في مخطط كهربية الدماغ ومتجعدة مثل المفروشات المجعدة أو الحواف المقطوعة عنوة. ليس الخطّ كالواصلة فإنّي أمقتها. إنما هي فرصة للخط. نذير شؤم للخط. يرسم علماء الرياضيات الخطوط. يرسم رجال الدولة الخطوط. ترسم شرطة الحدود الخطوط. يرسم موظفو الجمارك الخطوط. يرسم أعوان المراقبة الخطوط. الأنهار والغابات دون جسور ترسم الخطوط. ترسم الأراضي الحرام خطوطًا. والملامح خطوط فاصلة خرج منها جبنها وبراعتها ومكانتها. تبقى هي وبساطتها وعدالتها. يستحسن رسم الخطوط بالطباشير " يسمح لك الى هذا الحدّ، واحد، اثنان، ثلاثة". مع السكتات الدماغية تنتهي الحاجة إلى الطموح. أولئك الذين يتوسّدون معاصمهم. لكن ليس للخط نهاية إلا إذا قطعه خطّ آخر. ليس للحياة نهاية إلا إذا قطعتها بنقطة. سكبت الحبر في حوض الرمل بمرفقي لأرسم نقطة تسَعُ الفسحة الكبرى رحابة. ثمّ عقدت العزم على النهوض. مع حركة الوركين حركت ركبتي. أمسكت بالمزلقة فتسلقتها. نزول جديد على المزلقة لن يؤدي إلى نقطة أو واصلة. كل التنقّل محلّ ترحيب ما غاب عن انعكاس صورتي الشبه بين ما أنا عليه حينها وما كنت عليه قبل الفجوة. شربت فنجانا من الشاي. بالفراولة والفانيليا. النزول الجديد سيرسم خطًا جديدًا. وهكذا إلى قلب الحر حيث لا يميز المرء ألوانا ولا أسماء ولا أخلاقا حميدة، إلاّ الصورة وعدم الشكل، والخشونة والاستدارة، والخطوط والواصلات.